

المحاضرة الأولى المشكلة الأخلاقية في البحث العلمي

يعد العصر الحاضر عصر التقنية والانفجار المعرفي المستمد من البحث العلمي، الذي أضفى المقياس الأساسي لتحديد مستويات التقدم أو التخلف بين الأمم والشعوب، وفي هذا السياق أكد الباحث عبد الرحمن محمد عمر، عند تناوله لواقع وتوجهات البحث العلمي في العالم العربي، أن اتساع الفجوة الحضارية بين الدول يعود بالدرجة الأولى إلى التفاوت في حجم التنمية العلمية والتكنولوجية ومدى الاستثمار فيهما، وهو ما ينعكس مباشرة على مستوى القوة والرفاهية والوضع المالي للدولة

أولاً/ مفهوم البحث العلمي

تتعدد التعريفات العلمية للبحث العلمي، ولا يوجد حتى الآن تعريف جامع مانع يتفق عليه جميع المختصين. ومع ذلك يعد تعريف خبير اليونسكو "ديكنسون جون" من أكثر التعريفات شيوعاً حيث يعرفه بأنه: "استقصاء منهجي في سبيل زيادة مجموع المعرفة"، ومن هنا تتجلى أهمية البحث العلمي فيما يقدمه من نتائج تخدم الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية في جوانبها المتعددة. وبناء على الغرض من البحث، جرت العادة على تقسيمه إلى عدة أنواع، أبرزها:

أ- **الأبحاث الأساسية:** وتهدف بشكل رئيسي إلى زيادة الإنتاج المعرفي والتراكم العلمي، إذ إن الغرض الجوهري من أي نشاط علمي في هذا المسار هو تعزيز المعرفة الإنسانية من خلال تقديم شرح لظاهرة ما، أو وصف دقيق لحدث معين، أو تشخيص لطبيعة حالة، وهذا النوع من البحوث تضطلع به الجامعات والمعاهد والمؤسسات العلمية لأهميته في تأسيس قاعدة علمية يقوم عليها البناء الصناعي والتقني

ب- **الأبحاث التطبيقية:** تهدف إلى استثمار المعرفة العلمية وتوظيفها لتحقيق أغراض عملية ملموسة، وتضطلع الجامعات ومراكز البحوث بهذا الدور الحيوي كونه الركيزة الأساسية للبناء الصناعي والتقني وتتفرع هذه الأبحاث لتشمل:

- **الأغراض الصناعية:** لتطوير مراحل الإنتاج، وتحديث أنماطه وتقنياته بما يخدم القطاع الصناعي.
- **الأغراض الزراعية:** لتحسين جودة الإنتاج الزراعي وتطوير وسائله في مختلف المجالات.
- **الأغراض المدنية:** لتطوير المشروعات الهندسية، كبناء المطارات، الجسور، السدود، سكك الحديد.
- **تحقيق التقدم التقني:** عبر ابتكار أدوات ومعدات وعمليات إنتاجية جديدة تساهم في النمو الاقتصادي والتقدم المجتمعي.

وزيادة على ذلك يعد البحث العلمي أحد الوظائف والأهداف الرئيسة للجامعات؛ إذ يشير عوض عادل في كتابه مجالات البحث العلمي والتنمية الشاملة إلى أنه: "لا يمكن لأي مؤسسة ثقافية أن تسمى (جامعة) ما لم يكن البحث العلمي فيها يسير جنباً إلى جنب مع الفعالية التعليمية" وعليه، فإن هذه الأهمية تستوجب من الجامعات والمؤسسات العلمية في الوطن العربي وضع استراتيجيات وخطط بحثية وطنية تتسق مع إمكانياتها وتلبي متطلبات خطط التنمية الشاملة. كما يتطلب الأمر تفعيل التنسيق والتكامل بين هذه المؤسسات لضمان تحقيق الأهداف المأمولة.

وعلى الرغم من الأهمية الإستراتيجية للبحث العلمي، إلا أن المؤشرات والدلائل تؤكد أن واقعه في العالم العربي لا يزال يعاني من مظاهر تعيق تطوره، مما أدى إلى اتساع الفجوة التقنية مع العالم المتقدم. ففي معرض تشخيصه لهذه الظاهرة أشار ربيع محمد عبد الرحمن في بحثه المعنون معوقات البحث العلمي في الجامعة العربية إلى أن معوقات البحث العلمي يمكن تقسيمها إلى قسمين: الأولى معوقات مالية والأخرى معوقات أكاديمية بشكل عام، إلا أن الإشكالية الخطيرة التي تواجه البحث العلمي في عالمنا العربي هي المشكلة الأخلاقية التي بدأ الباحثون والمختصون في الحديث عنها والشكوى منها لأنها أصبحت مصدر قلق لهم وللبحث العلمي عموماً، وهو ما أشار إليه حجازي عزت بقوله: "إن ثمة درجة واضحة من عدم الالتزام بمتطلبات المصادقية الأخلاقية سواء بين الباحثين الأكاديميين في الجامعات ومراكز البحوث وغيرها، وهو ما أشار له وأكدته أيضاً القربي علي بن سعد بقوله: "إن موضوع انتهاك الأمانة العلمية يعد أهم الموضوعات المثيرة للجدل بين الباحثين الجادين والمتسلقين على الساحة العلمية"، والتي تعد أهم مظاهر المشكلة الأخلاقية في البحث العلمي العربي، بالإضافة إلى ما تكشف عنه التقارير والمجلات العلمية والدوريات اليومية من قضايا تتعلق بـ "السراقات العلمية"، وما يترتب عليها من مجالس تأديبية وملاحقات قضائية، وقد تفاقمت هذه الظاهرة حتى غدت مادة خصبة لمؤلفات كاملة تتناول "الفساد الأكاديمي" وسلوكيات الوسط الجامعي.

ثانياً/ الأخلاق والبحث العلمي

تمثل الأخلاق في البحث العلمي الجوهر الذي يمنح المعرفة شرعيتها المجتمعية ومصادقيتها الأكاديمية، فالبحث ليس مجرد عملية تقنية، بل هو مسعى إنساني محكوم بمنظومة من القيم تضمن حماية الكرامة البشرية والنزاهة المهنية. وتبرز المشكلة الأخلاقية عندما تتعارض الرغبة في اكتشاف الحقيقة أو تحقيق سبق علمي مع الحقوق الأساسية للمشاركين أو مع مقتضيات الأمانة في عرض النتائج، مما قد يقوض الثقة العامة في المؤسسات العلمية.

1- مفهوم الأخلاق: لغة واصطلاحاً

أ/ **المعنى اللغوي:** كلمة "أخلاق" جمع لكلمة "خُلُق"، وتشير في أصلها اللغوي إلى السجية، والطبع، والمروءة، والدين، والخُلُق كما تأتي بمعنى الطبيعة المتأصلة في الذات، فالخُلُق هو حقيقة صورة الإنسان الباطنة، وما تشتمل عليه من أوصاف

ومعاًن، سواء كانت تلك الأوصاف مستحسنة أو قبيحة. ووردت كلمة "الخلق" في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: "وإنك على خلق عظيم" القلم 4. ووردت في السنة النبوية في قول الرسول عليه الصلاة والسلام "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" ب/ **المعنى الاصطلاحي:** تعددت الرؤى الاصطلاحية في تعريف الأخلاق، ومن أبرزها تعريف الجرجاني في كتابه التعريفات الذي يرى أنها: "عبارة عن هيئة للنفس راسخة، تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية؛ فإن كانت تلك الهيئة مصدراً للأفعال الجميلة (عقلاً وشرعاً) سميت خلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها أفعالاً قبيحة سميت خلقاً سيئاً". كما اعتبر صابر علي عبد المنعم أن الأخلاق هي الضوابط والمعايير التي تضبط سلوك الباحث ومنهجيته العلمية حتى تكون نتائجه سليمة وخالية من الأخطاء، ومحققة لأهداف الأمة.

وهناك من عرفها بأنها: "عبارة عن المبادئ والقواعد للسلوك الإنساني التي يحددها الوحي لتنظيم حياة الإنسان على نحو يحقق الغاية من وجودنا في هذا العالم على أكمل وجه. كما تعرف أخلاقيات البحث العلمي بأنها مجموعة من المبادئ والواجبات الأخلاقية المرتبطة بسير نشاط البحث العلمي.

ج/ مفاهيم مرتبطة بالأخلاق متمثلة فيما يلي:

القيم (Values) لغوياً تعني الاستقامة والاعتدال والثبات، أما اصطلاحاً فهي تمثل نسقاً من الأحكام المكتسبة التي يستقيها الفرد من محيطه الاجتماعي، ومعتقداته الدينية، وإرثه الثقافي، وتعمل هذه القيم كبوصلة ذهنية توجه التفكير وتشكل السلوك الإنساني، مما يجعلها عنصراً جوهرياً في عملية التعلم وتشكيل الشخصية. ووفقاً لمنظور العلوم الاجتماعية، تمثل القيمة كل ما يحظى بتقدير الفرد واهتمامه بناءً على اعتبارات (اجتماعية، اقتصادية، أو سيكولوجية). وهي ليست فطرية، بل أحكام مكتسبة تنسم بالخصائص التالية:

- **النسبية:** تختلف باختلاف المجتمعات والجماعات، تماشياً مع تنوع الثقافات.
- **الوظيفية:** تستخدم كمعايير لتقييم السلوك (مقبول أو مرفوض) ولإصدار الأحكام على الأشياء.
- **التداخل الأخلاقي:** تشكل القيم جوهر النظام الأخلاقي فمبادئ مثل الصدق، الأمانة، والشجاعة هي في أصلها قيم يغرسها المجتمع لتحقيق الصالح العام والفضيلة.
- **البعد الإجرائي في السياق الأكاديمي/** من الناحية الإجرائية، تتبلور القيم في البيئة العلمية كـ "ميثاق أخلاقي" يتضمن مجموعة من الضوابط والمعايير التي يصيغها ويتوافق عليها الباحثون والأكاديميون، والتي تهدف إلى:
 - توجيه السلوك المهني داخل المؤسسات البحثية.
 - ضبط العلاقات البينية والاجتماعية بين الفاعلين في الحقل العلمي.
 - ضمان جودة المخرجات البحثية وتحقيق أهداف البحث العلمي بأعلى درجات النزاهة وعلى الوجه الأكمل.
- **تعميق الفهم حول هذا المفهوم،** يمكن تقسيم الشرح إلى ثلاث نقاط جوهريّة:
- **المصدر والتغذية:** يوضح النص أن القيم ليست نتاجاً ذاتياً معزولاً، بل هي عملية "تشرب" مستمرة من البيئة، والدين والثقافة والمجتمع هم المورد الرئيسي الذي يمنح الفرد معايير التقييمية.
- **القيمة كأداة توجيهية: (Control Mechanism)** لا تقتصر القيمة على الجانب النظري، بل لها وظيفة "إجرائية" وعملية في البحث العلمي مثلاً، القيمة هي التي تمنع الباحث من السرقة العلمية وتدفعه للأمانة، ليس فقط خوفاً من القانون، بل التزاماً بالمعايير التي "ارتضاها" المجتمع الأكاديمي.
- **العلاقة بين القيم والأخلاق:** القيم هي "المعايير" أو المسطرة التي نقيس بها، بينما الأخلاق هي "الممارسة" والنظام العام الذي يضم هذه القيم تحت مظلته لتحقيق غاية أسمى وهي "الخير".
- **ملاحظة جوهريّة:** إن اختلاف القيم بين المجتمعات (النسبية الثقافية) لا يعني غياب الحقيقة، بل يعني تنوع الوسائل التي تسعى من خلالها الجماعات البشرية لتحقيق الاستقرار والانسجام الاجتماعي.
- **الأخلاق والأخلاقيات:** الأخلاق هي منظومة قيمية عامة تحكم المجتمع، بينما الأخلاقيات تخص مهنة معينة، وتحدد القوانين والشروط التي يعمل بموجبها أصحابها، وقد تتعارض أخلاقيات مهنة مع أخرى بسبب التحيز للمصالح الخاصة، لذا من الضروري وجود منظومة أخلاق عامة توازن بين أخلاقيات المهن المختلفة وتحافظ على الصالح العام، وفي غياب هذه المنظومة قد تسيطر أخلاقيات مهنة معينة وتقرض قوانينها على المجتمع، مما يؤدي إلى تشويه القيم الأخلاقية وتحريك المجتمع بناءً على مصالح فئة محددة
- **المفهوم الإجرائي لأخلاقيات البحث العلمي:** هي منظومة متكاملة من المعايير المعيارية والضوابط السلوكية التي تشكل الميثاق الأخلاقي الحاكم لنشاط الباحث (أستاذاً أو طالباً) خلال رحلة التقصي الأكاديمي. وتتمثل في الالتزام الصارم بمبادئ الأمانة العلمية، والموضوعية، والتجرد من الهوى الشخصي، مع التحلي بالصبر المنهجي في تتبع الأدلة ونبذ الزيف الفكري والأوهام العقلية. وهي لا تقتصر على كونها نصائح أدبية، بل هي أداة ضبط تنظيمي تهدف إلى الرقي بالبحث العلمي وضمان موثوقيته وحمايته من مختلف مظاهر السلوك العلمي السيئ
- **وبتحليل هذا المفهوم الإجرائي نستنتج أربعة أبعاد رئيسية توضح عمق الالتزام الأخلاقي:**
- **البعد الذاتي ممثلاً في سمات الباحث** وترتكز على عنصرين هما:
- **الإخلاص والنزاهة:** التجرد التام من المصالح الشخصية في عرض النتائج.

الجد الأكاديمي: الصبر على مشاق البحث وتدقيق المعلومات دون استعجال.
البعد المعرفي ممثلاً في التعامل مع الحقيقة وترتكز على عنصرين هما:
تحري الدقة: تتبع الأدلة من مصادرها الأصلية.

محاربة الزيف: تنقية البحث من الأوهام العقلية أو التحيزات المسبقة التي قد تشوه الحقيقة.
البعد الإجرائي ونقصدها الضوابط المهنية والتي تتضمن: تحديد القواعد التي تنظم العلاقة بين الباحث والمجتمع العلمي،
وبين الباحث وعينة الدراسة، مما يضمن احترام الحقوق والملكيات الفكرية.
البعد الغائي وهو ما يعني الهدف الأسمى وهو: تجاوز الخلافات الشخصية والأباطيل لضمان استمرارية مسيرة البحث العلمي وتطوره، مما يؤدي في النهاية إلى "تحقيق نفع المجتمع".
إن أخلاقيات البحث العلمي هي "ضمير الباحث اليقظ" الذي يحول دون تحويل العلم إلى وسيلة للمصالح الضيقة، ويضمن بقاء الحقيقة العلمية ناصعة وموثوقة.

ثالثاً/ العلاقة بين مفهوم الأخلاق وممارسة البحث العلمي

إن الانتقال من المفهوم العام للأخلاق إلى مجال البحث العلمي يمثل تحولا من "الهيئة الراسخة في النفس" إلى "الممارسة المهنية الملتزمة"، ويمكن استجلاء هذا الربط من خلال النقاط التالية:
- من "السجية" إلى "الأمانة العلمية": إذا كان الخلق في اللغة هو (السجية والطبع)، فإن أخلاقيات البحث العلمي تمثل انعكاساً لسجية الباحث في تحري الصدق. فالأمانة في نقل المعلومات، وتوثيق المصادر، وعدم تزيف النتائج، ليست مجرد إجراءات شكلية، بل هي "صورة الباحث الباطنة" التي تظهر في نتاجه المعرفي.
- "الهيئة الراسخة" كضابط للنزاهة: انطلاقاً من تعريف الجرجاني للأخلاق بأنها (هيئة راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة)، فإن الباحث الذي تتجذر فيه أخلاقيات المهنة يمارس النزاهة الأكاديمية بتلقائية؛ فلا يجد حاجة "للتفكير أو الروية" عند مواجهة إجراءات السطو العلمي أو الانتحال، بل يصدر عنه الفعل القويم (الخلق الحسن) التزاماً بمنهجية العلمية.
- الفرق بين "الفعل الجميل" و"الفعل القبيح" في البحث: طبقاً للتقسيم الاصطلاحي، فإن:
الخلق العلمي الحسن: يتمثل في احترام حقوق الملكية الفكرية، والموضوعية في النقد، والشفافية في عرض البيانات.
الخلق العلمي السيئ: يتمثل في الفساد الجامعي، والسرقا العلمية، والمحابة في التحكيم، وهي الأفعال التي توصف بأنها مظاهر للتردي القيمي.

وهذا يعني أن الأخلاق في البحث العلمي ليست قيوداً خارجية تُفرض على الباحث، بل هي "منظومة قيمية باطنة" تنظم علاقته بالمعرفة وبالآخرين، وهي الضمانة الوحيدة لردم الفجوة التقنية والحضارية التي يعاني منها العالم العربي، إذ لا يمكن بناء نهضة علمية على أسس أخلاقية مهزوزة.

رابعاً/ أشكال سوء السلوك العلمي: تصنف المراجع المنهجية الانتهاكات الأخلاقية الكبرى إلى ثلاثة أشكال رئيسية:

- التزيف: اختلاق بيانات أو نتائج وتدوينها وكأنها حقيقية.
- التزوير: التلاعب بالمواد أو العمليات البحثية، أو حذف بيانات لتغيير حقيقة النتائج.
- السرقا العلمية: الاستيلاء على أفكار أو كلمات أو نتائج الآخرين ونسبتها للذات دون توثيق سليم.

نوع الانتهاك	التعريف المنهجي	التأثير الأكاديمي
التزيف	اختراع نتائج وهمية	تدمير مصداقية السجل العلمي
التزوير	تغيير البيانات لتناسب الفرضيات	تضليل المجتمع العلمي
السرقا العلمية	انتحال مجهود الآخرين	قتل روح الابتكار والاعتداء الفكري

خامساً/ أهمية أخلاقيات البحث العلمي

الأخلاق عموماً ذات أهمية كبيرة في حياة الإنسان، فلا يمكن للإنسان أن يحيى حياة كريمة مستقرة ومطمئنة، إذا لم يتحل بقدر كافٍ من الأخلاق، فقيمة الأمم والمجتمعات ورفيها وإنسانيتهما لا تقاس بالأمور المادية وإنما بالقيم الأخلاقية السائدة بين أبنائها.

يقول الشاعر: إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا.

أما أهمية الأخلاق في مجال البحث العلمي فيمكن إيجازها في النقاط الآتية:

أولاً/ إن العلماء والمشتغلين بالبحث العلمي من الأساتذة والباحثين هم نخبة الأمة وقودتها، ويفترض فيهم أن يكونوا على قدر عالٍ من الأخلاق، كالصدق والأمانة، والموضوعية والكفاءة... ونحو ذلك من الأخلاق التي يقتضيها العلم والمعرفة، فإذا افتقر العلماء إلى الأخلاق ضاعت قيمتهم في المجتمع، وفقد العامة ثقتهم في علمائهم، وهذا يؤدي حتماً إلى اختلال أحوال المجتمع وضعفه وتخلفه، ولذلك لا ينبغي التسامح مع الانحراف الأخلاقي في المجال العلمي، يقول ديفيد رزنيك: "إن أي انحراف

أخلاقي ينبغي أن يؤخذ بجدية شديدة، فحتى لو ظلّ الانحراف الأخلاقي نادرا جدا في العلم، فإن واقعة حدوثه أصلا سبب للاهتمام بالأمر، ما دام أي سلوك منحرف يحطم الصورة العامة للعلم، كما يقلل من التأييد الجماهيري له).
ثانيا/ إن حاجة العلم والبحث العلمي إلى الأخلاق أشد من حاجة المهن الأخرى إليها فالبحث العلمي أشرف المهن وأرقى الوظائف، لأنه أساس تطور المجتمعات، وسر نهضتها الحضاري سواء في المجال المعرفي أو المادي، ولا يمكن للبحث العلمي أن يتبوأ الأهم وراقي هذه المكانة، أو يلعب هذا الدور، ويحقق هذه الغاية إذا تجرد من الأخلاق، إذ حينها سيصبح معول هدم للقيم، وسلاحا لتدمير الأمم. وأبسط مثال على ذلك أن يستخدم البحث العلمي لإنتاج الأسلحة الفتاكة (النووية والبيولوجية)...، بغرض الإخلال بالسلم العالمي، وافتعال الحروب، واحتلال البلدان الضعيفة ونهب خيراتها واستعباد شعوبها.

ثالثا/ الالتزام بالأخلاقيات يعد ضمانا أساسية لجودة البحث العلمي وتطوره، فكلما التزم أعضاء المجتمع العلمي بالمبادئ الأخلاقية القائمة على الأمانة والكفاءة، والموضوعية والإخلاص، كلما كانت نتائج البحث ومخرجاته ذات جودة عالية، تعكس حرص هؤلاء الباحثين على الوصول إلى الحقيقة، والرقى بالمعرفة، وخدمة البشرية.

رابعا/ الالتزام بأخلاقيات البحث العلمي يكفل حماية حقوق الملكية الفكرية، وهذا ما سيشجع الباحثين على البحث ونشر نتائج بحوثهم دون خوف على حقوقهم الفكرية وبراءات اختراعهم من الاعتداءات بالانتحال والسرقة والتقليد فاستقرار وازدهار البحث العلمي مرهون باحترام أخلاقياته، لأن يهدد سلامة واستقرار البحث العلمي

خامسا/ التحلي بالأخلاق العلمية يؤدي حتما إلى اهتمام العلماء والباحثين- بالموضوعات والأبحاث التي تهتم مجتمعاتهم، وتخدم مصلحة بلدانهم، وتحل مشكلات شعوبهم، وليس خدمة مصالحهم الخاصة، وهذا يسهم في خدمة المجتمع وتنميته من جميع الجوانب، كما يسهم في تحقيق الرضا الاجتماعي عن وظيفة البحث العلمي في المجتمع، وستكون العلاقة بين عامة الناس وعلمائهم مبنية على الثقة والاحترام والتقدير، مما يؤدي إلى تشجيع الباحثين ودعم البحث العلمي.